ثالثة الأذلّين أو اللغة العربية بين المطرقة والسندان

حسان الحاج إبراهيم

١- لا مراء في أن اللغة العربية اليوم في البلاد التي تلقب بالبلاد العربية لغة مهملة مُضَيَّعة (أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام) ، وهي ما تزال تدفع في هذه البلاد ذات اليمين وذات الشمال ، وتنقر بالمعاول كل حين وآن ، وتطرق بالمطارق حتى كأنها ثالثة الأذلين اللذين ذكرهما الشاعر حيث يقول :

ولا يُقِيمُ بِدَارِ الذُّلِّ يَعْرِفُها إلاَّ الأَذَلاَّنِ عَيْرُ الأَهْلِ والوَتِدُ

واللغة العربية قد تطلق ويراد بها لغات العامة في تباينها وتنافرها واختلافها بين المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، أو قد تطلق ويراد بها هذه اللغة العربانية المفرنجة المحدثة التي أصبحت لغة الكتابة والسلطان في عصر الضعة والحطة والهوان ١ ، ولكن اللغة العربية في حقيقتها وكما سوف نصطلح عليها في هذا المقال ليست لغات العامة ولا لغة العربان وإنما هي اللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم والأدب العربي ، ولغة المدنية الإسلامية من بدايتها إلى نهايتها قبل جيل أو جيلين من الزمان . وقد جار بهذه اللغة العظيمة هذا الزمان ، وجار عليها المنتسبون إليها ، فجعلوها بين أمرين كلاهما شر ، وكأنما جعلوها بين المطرقة والسندان ٢ (الشكل ١) .

والمطرقة هي الآلة التي يطرق بها الحديد أي يضرب ، والطِراق هو الحَديدُ الذي يطرق ويُعرَّضُ . فأما الطِراق الذي نعنيه في هذا المقام فهو اللغة العربية الفصحى ، وأما المطرقة فهي هذه اللغات الأعجمية التي طغت على العربية الفصحى وما تزال تطرقها وتضربها وتكاد تسحقها سحقاً وتزحزحها عن مكانها زحزحة ، حتى أصبحت بعض هذه اللغات لغات العلم والتعليم في البلاد التي تلقب بالبلاد العربية ، بل ربما وجدنا بعض هذه اللغات وقد أصبحت لغات التخاطب في الأسواق والمجامع والمحافل ، وفي البيوت والمنازل أحياناً . وربما وجد المرء أنه قد يسهل التفاهم والحوار في بعض البلاد الملقبة بالعربية ببعض اللغات الأعجمية ولا سيما الإنكليزية في المشرق والفرنسية في المغرب في حين لا يسهل ذلك باللغة العربية أو العربانية في هذه البلاد . وقد يستطيع المرء أن يعمل ويعيش في بعض البلاد الملقبة بالعربية وهو يجهل العربية بأنواعها التي سبق ذكرها جهلاً كاملاً في حين لا يستطيع ذلك الذي يجهل اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في هذه البلاد . ومن أغرب الطرائف التي لا تجوز إلا في بعض البلاد الملقبة بالعربية أن المرء قد يضطر إلى تعلم اللغة الإنكليزية ليستطيع التكلم والتخاطب مع الخدم الذين يستخدمهم في منزله ممن لا يعرفون أي شكل من أشكال العربية ولا يهمهم أن يتعلموها وهم يعملون في بلد ملقب بالبلد العربي ، فيفرض الخدم لغتهم التي يعرفونها على سادتهم الذين يجهلونها ، وهو من أعجب الغرائب التي لا تجوز إلا في البلاد الملقبة بالعربية في عصر الحطة والذلة والهوان .

اللغة العربية بين المطرقة والسندان

والسَنَدان أو السِنْدان سَنَدَانُ الحَدَّاد وهو الزُبْرة التي يطرق عليها الحدَّادُ الحديدَ (جمع سنادين) . وهو القصَرة والعَلاة والقُرزوم والمسطبة . والقَصَرَةُ محرّكة : زُبْرَةُ الحَدّاد ، عن قُطْرُب ، وكذلك العَلاةُ : السندانُ حَجَراً كانَ أو حَديداً ، والجَمْعُ العَلا ، ومنه حديثُ عَطاء في مَهْبَط آدَم عليه السّلام : هَبَطَ بالعَلاة . والقُرْزُومُ والفُرْزُومُ : السندان أو لَوْحُ الإسْكاف المُدَوَّرُ ، والجَمْعُ : قَرَازِيمٌ وفرازيم . وقال ابنُ دُرَيْد : وهو بالفَاء أَعْلَى . وحَكَى ابنُ برّيٍّ عن ابن خَالَوَيْه : الفُرزُومُ بالفَاءِ خَشَبَةُ الحَذَّاء ، وبالقَاف سِنْدَانُ الحَدَّاد . وقَالَ ابنُ الأَعْرَابيّ المساطب هيَ سَنَادينُ الحَدَّادين . والسندان الذي نعنيه في هذا المقام أو القصَرة أو العَلاة أو القُرزوم أو المسطبة ليس سندان حداد أو خشبة حذّاء وإنما هو لغات العامة في بلاد العربان ، وهي لغات قد ترجع إلى أصل عربي أو قد ترجع إلى أصول غير عربية كالكردية والبربرية والسريانية وغيرها ، فما تزال لغات العامة السقيمة هذه تطغى على اللغة العربية في البلاد التي تلقب بالبلاد العربية وتزحزحها عن مكانها كما زحزحتها عن مكانها في الغناء والمسرح والتلفاز والإذاعة والسينما ونحوها وكذلك في هذا الضرب السقيم من الشعر الذي ينبذ بالشعر النبطي .

وكذلك تضيع العربية بين اللغات الأعجمية ولغات العامة ، فهي بين أمرين من مطرقة وسندان كلاهما شر . فأما اللغات الأعجمية فهي ذات آثار في العربية تفسد العربية وتنوء بها ، وهي آثار قد تختلف باختلاف هذه اللغات وتفضي في كل حال إلى مزيد من الفرقة والضياع . وأما لغات العامة فهي في حقيقتها لهجات وليست لغات معيارية ، وهي تتصف بما تتصف به اللهجات عامة من صفات أهمها التغير المستمر في الزمان والمكان ، والعجز عن التعبير الدقيق والبيان .

٢- المطرقة

١،١- وقد كان من آثار اللغات الأعجمية في اللغة العربية أنها بدلت اللغة العربية وحولتها في البلاد الملقبة بالبلاد العربية من لغة فصحى واحدة إلى لغة عربانية متنافرة مختلفة . وأصبح الذي يعرف العربية عاجزاً عن فهم ما يكتب بالعربانية إن لم يكن يعرف بعض اللغات الأعجمية ولا سيما الإنكليزية أو الفرنسية .

" واللغة العربانية تهمل الكلمات والاصطلاحات العربية على شدة الحاجة إليها وتهجرها وتنبذها ، فإن استعملت بعض هذه الكلمات العربية فيها ، فإنها تستعمل في الغالب بمعان منقولة عن اللغات الأعجمية لا صلة لها بمعاني هذه الكلمات في اللغة العربية . والقارئ اليوم إن بحث عن معاني الكلمات المكتوبة باللغة العربانية في معجمات اللغة العربية الفصحى يخطئ المعنى المطلوب فيها ولا يصيبه ، بل لا بد له من البحث عن معاني هذه الكلمات في المعجمات الإنكليزية أو الفرنسية . والمرء الذي يقرأ كتاباً أو فصلاً مكتوباً باللغة العربانية قد يجد لفظاً يجهل معناه أو عبارة لا يفهمها ، وسبيله في الفهم عندئذ هو أن يحاول أن يرجع باللفظة أو العبارة إلى أصلها في اللغة الإنكليزية أو الفرنسية ، ثم يبحث عن المعنى المطلوب في معجمات هاتين اللغتين .

" وكذلك فقد تبدو الكلمتان العربية والعربانية متماثلتين لفظاً وكتابة ولكنهما تختلفان في المعنى مع ذلك كل الاختلاف ، فأما معنى الكلمة العربية فيجده طالبه في مظانّه من كتب اللغة العربية وكتب الأدب العربي ، وأما المعنى في اللغة العربانية فلا يجده طالبه إن طلبه إلا في كتب اللغات الأعجمية ومعجماتها ، فالكلمتان العربية والعربانية رفيقان مفترقان أو صاحبان كاذبان كما قد يقال لهما في اللغة الإنكليزية (False friends) أو الإسبانية (Falsos amigos) .

" والعرباني المحدث إذا ذكر أسنان اللبن أو الأسنان اللبنية فلن ينفعنا في معرفة مراده أن نرجع إلى معجم عربي ، ولن ينفعنا أن نظن أنه يعني أسناناً من اللبن أو أسناناً تربطها باللبن صلة ما فليس يعرف في الأسنان مثل هذه الأسنان ، ولن ينفعنا عندئذ إلا أن نعلم أن أسنان اللبن هي نقل لفظي لاصطلاح إنكليزي (Milk teeth) ، وأن

هذه الأسنان اللبنية ما هي في الحقيقة إلا ما يعرف في العربية بالرواضع ، والراضعة هي كل سِنّ تُثْغَر . قال أبو زيد : وإذا سقطت رواضع الصبي قيل : ثُغِر ثَغْراً فهو مَثْغور . وربما كان أغرب من ذلك وأطرف أن الناب ، وهي السن التي بعد الرباعية ، قد تنبذ في الكتب العربانية بلقب السن العينية أو سن العين (Eye-tooth) ، وربما قيل لها كذلك السن الكلبية (Canine tooth) ، وكل ذلك نقل لفظي سقيم لا حاجة به عن اللغة الإنكليزية .

" والزيت في العربية هو دهن الزيتون لا غيره ، أما الزيت في اللغة العربانية فيراد به ما يراد بكلمة Oil في اللغة الإنكليزية ، أي السائل اللزج الثخين ، فتطلق الكلمة الإنكليزية على الأدهان (= Fatty oils) كما قد تطلق على طائفة من السوائل المعدنية ولا سيما النفط (= Mineral oils) ، فيقال للنفط في هذه اللغة Oil أيضاً ، كما يقال للنفط زيت في العربانية كذلك ، وإن لم يكن بين الزيت والنفط من صلة من الصلات " ٣ .

وفي كتابه جنة الشوك يشير طه حسين إلى كلمة (الرسالة) التي أصبح يلوكها كما يقول " كل إنسان حين يريد أن يعبر عن المهمة ، فللكاتب رسالة ، وللشاعر رسالة ، وللعالم رسالة ، ولصاحب السياسة رسالة أيضاً ، وما أعرف أن اللغة (العربية) تؤدي بكلمة الرسالة هذا المعنى الجديد " ، وهذه الرسالة بمعناها العرباني الجديد " كلمة أذاعها في لغتنا الحديثة (العربانية) مزاج من الجهل والغرور : الجهل باللغة العربية ، والغرور الذي يخيل إلى كل إنسان أنه نبي قد أرسله الله برسالة يعلم بها الناس شيئاً أو يحدث بها في الناس حَدَثاً ، وإذا اجتمع الجهل والغرور على أمة دفعاها إلى أكثر من الخطأ اللغوي واستعمال الألفاظ في غير مواضعها " ٤ .

١،٢- وقد زاد من حدة الخلاف وشدته في البلاد الملقبة بالعربية اختلاف اللغة الأعجمية الغالبة فيها بين البلاد التي تخضع منها للسلطان الإنكليزي والبلاد التي تخضع للسلطان الفرنسي ، وأضيف هذا الخلاف إلى الخلاف في لغات العامة فزاده حدة وشدة .

وكذلك نجد في اللغة العربانية للأشهر الفرنجية أسماء كثيرة مختلفة متنافرة تجعل التفاهم بين العربان عسيراً غير يسير . وقد نضرب على ذلك مثالاً من الشهر الأول من شهور السنة الفرنجية ، وهو شهر يعرف في لغة المحدثين من أهل العراق والشام بكانون الآخر ، أو ربما قالوا كانون الثاني وهو من الخطأ الشائع هناك ، فليس شهر كانون هذا كانوناً ثانياً وإنما هو كانون آخِر بكسر الخاء ، وأما في لغة العامة المحدثين من أهل مصر فيقال لهذا الشهر يناير ، وأما في بلاد المغرب فيقال له جانفي أو جان?ي نقلاً عن الفرنسية (Janvier) . ثم إن بعض الساسة في بعض البلاد الملقبة بالعربية ، وهي بلاد تعرف الآن باسم أعجمي غير عربي ، كان وضع لهذا الشهر الفرنجي اسماً مبتدعاً لا يعرف له أصل ولا فصل ولا حاجة لذكره في هذا المقام بعد أن دالت دولة هذا الرجل وذهب بذهابه ما وضع وما ابتدع .

ولم يكن القدماء مع ذلك يجهلون اسم هذا الشهر الفرنجي ، فكان بعضهم ربما سماه ينير كما جاء في رسالة إسحاق بن عمران : " في شهر ينير تشرب شراباً شديداً كل

غداة " ٥ . وكان شهر كانون الآخر هذا يقال له كذلك مِلْحان . وهو أحد الكانونين : كانون الأول وكانون الآخر ، وهما ملحان وشِيبان ، وهما شهران في قلب الشتاء ، وهما أشد شهور الشتاء برداً ، وهما عند طلوع العقرب والنسر . وسميا بذلك لابيضاض الأرض بما عليها من الثلج والصقيع ، قال الكميت :

إذا أمست الآفاق غُبْراً جُنوبها بشيبان أو مِلْحان واليوم أشهب

أي من الثلج . وشِيبان ومِلحان أيضاً هما شهرا قِماح أو قُماح . وقال أبو منصور : وهذان الشهران عند العرب هما الهَرّاران والهَبّاران .

والباز (Accipiter gentilis) من الجوارح التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي وكانوا يصيدون بها (الشكل ٢) ، وجاء في حديث عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين أنهما جاءا النبي صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة ، فيروى أنه فيهما نزلت هذه الآية من سورة المائدة (٤) (يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح) ٦ . والباز طائر يصيد الطيور من الصِعاء والسُمْنان إلى الحمام والغربان وكبار الطيور كالطياهج والإوز ، كما يصيد الدجاج وغيره من الدواجن أيضاً ، ولذلك عرف الباز في اللغات المختلفة بأسماء مختلفة نسبة إلى ما يصيده من الطيور ، فأما في اللغة الإنكليزية فيعرف فيها باسم صقر الإوز Goshawk ، واسمه في الإنكليزية مركب من Goose و Hawk ، وفي الفرنسية يعرف بصقر الحمام المطوق (Autour des palombes) ، وفي الألمانية يعرف باسم صقر الدجاج (Hühnerhabicht) ، ومن الطريف أن الذين يترجمون من الإنكليزية يسمونه صقر الإوز أو الصقر الإوزي لأنهم لا يعلمون أنه هو الباز المعروف في اللغة العربية ، وكذلك سماه أحمد زكي في مقالة له عن الجوارح في مجلة العربي ٧ : الصقر الإوزي ، أما الذين يترجمون اسمه من الفرنسية فيسمونه صقر الحمام ، ولست أدري إن سماه بعضهم كذلك صقر الدجاج نقلاً لفظياً عن الألمانية ٨!

والزَمَعَة (ج زَمَع وزِماع وأزْماع) : هنة زائدة ناتئة على التشبيه بزماع الحيوان من الظلف ونحوه ، وفي الصناعة قد تزاد الزماع على سطوح الأنابيب لزيادة مساحة انتقال الحرارة فيها كما في أنابيب المُبادَلات الحرارية والأفران ونحوها (الشكل ٣) . فأما في اللغة الإنكليزية فتعرف الزمعة بالزعنفة (Fin) وكذلك يسميها من ينقل عن اللغة الإنكليزية ، وأما في اللغة الفرنسية فتعرف الزمعة بالجنيح (Ailette) ، وكذلك يسميها من ينقل عن هذه اللغة . والناقلان كلاهما يهملان الاسم العربي الصحيح لهذه الهنة الزائدة الناتئة التي ليست في الحقيقة زعنفة ولا جنيحاً .

والكثافة النسبية هي نسبة كثافة المادة إلى كثافة مادة معيارية كالماء (للسوائل) والهواء (للأغواز) ، فأما الذين ينقلون عن الإنكليزية فيسمونها الوزن النوعي (Specific gravity) ، وهي تسمية غير صحيحة لأن الكثافة مقياس للكتلة وليست مقياساً للوزن كما يعرف كل من يشدو شيئاً قليلاً من العلم . وأما الذين ينقلون عن الفرنسية فيسمونها كثافة (Densité) وإن كان من الصحيح أنها كثافة نسبية وليست كثافة مطلقة .

وكذلك يضيع القارئ الذي يقرأ اللغة العربية المحدثة بين الزيت والأدهان ، وبين الرواضع وما ينسب إلى اللبن أو الكلب من الأسنان ، كما يضيع بين كانون الآخر والثاني وجانفي ويناير وشيبان وملحان ، وبين الباز وصقر الإوز أو الدجاج أو الحمام ، وبين الجنيح والزمعة والزعنفة ، وبين الوزن النوعي والكثافة النسبية والكثافة .

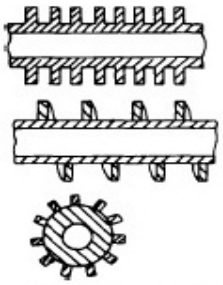

أشكال مختلفة من الأنابيب ذات الزماع

٢- السندان

٢،١ – ولغات العامة في البلاد الملقبة بالبلاد العربية لهجات متغيرة مختلفة في المكان والزمان بلا ثابت لها ولا ضابط ، منفلتة من كل قيد ، بل هي ما تزال تتفاعل بعضها مع بعض أو تتعرض لعوامل التغيير العديدة وتتفرع منها لهجات أخرى وهكذا دواليك في تعاقب لا نهاية له . وكلما تباعدت هذه اللهجات في المكان أو الزمان زاد بتباعدها اختلافها بعضها عن بعض زيادة تطرد مع زيادة التباعد بينها إلى أن يغدو التفاهم بين المتكلمين بها عسيراً أو غير ممكن حين يتجاوز تباعدها بعضها عن بعض في المكان أو الزمان غاية معينة .

ولتغير اللهجات العربية المستمر مظاهر مختلفة قد تتصل بتغير اللفظ أو بتغير معاني الكلمات أو وضع الكلمات الجديدة أو موتها أو قد تتصل بتغير قواعد النحو والصرف فيها .

ومظاهر تغير اللفظ في اللهجات العربية عديدة منها :

× ميل المتكلمين إلى الاقتصاد في اللفظ واختصار الكلمات ، والاقتصار في الكلمات الطويلة المتعددة المقاطع على مقطع واحد ، وهي ظاهرة تشاهد في كثير من اللهجات العربية ، فكلمة ولد قد تلفظ وال أو واد والسيدة ست ، وقد تحولت كلمة أستاذ في لغة العامة من أهل مصر إلى أسطى ، فإذا نادوا قالوا : يَسْطى .

× ومن الشائع في كثير من اللهجات العربية حذف حرف الهمزة ولا سيما همزة الوصل أو جعل همزة القطع همزة وصل ومنه قولهم لأم أحمد أمّحْمَد ، والمَرَة عندهم هي المرأة والفارة هي الفأرة .

× الاختصار في لفظ الحركات وتسكين الأحرف كقولهم : كْتاب (أي كِتاب) ونحو ذلك ، ثم اختصار أحرف المد ، وهي ظاهرة تشاهد في لغة العامة في مصر خاصة ، إذ يحولون أحرف المد إلى حركات في كثير من الكلمات فيقولون مُحَضْرة (أي محاضرة) ومُرَسْلة (أي مراسلة) ونحو ذلك .

× القلب أو التبديل في مواقع الأحرف (= Metathesis) ، ومثال ذلك في لغة العامة قولهم جوز بمعنى زوج .

× تغير لفظ بعض الأحرف ، كأن تجعل الذال زاياً أو دالاً فيقال للذهب دهب أو زهب ، وكذلك فقد تجعل القاف في بعض اللهجات همزة ، وتجعل الجيم كافاً فارسية أو ياء وغير ذلك كثير .

ومن مظاهر تغير اللهجات العربية تغير معاني الكلمات والألفاظ فيها ، ولهذا التغير في معاني الكلمات أشكال كثيرة مختلفة ، وإجمالاً فإن الكلمات قد تكتسب مع الزمن صفات تجعل من الكلمات المهذبة المقبولة كلمات مستهجنة أو تجعل من الكلمات المستهجنة كلمات مهذبة مقبولة ، أو قد تتغير دلالة الكلمة فتدل على الأمر القبيح بعد أن كانت تدل على الأمر الحسن أو قد تدل على الأمر الحسن بعد أن كانت تدل على الأمر القبيح . وقد يتسع معنى الكلمة فتضم معان أخرى تضاف إلى معناها الأصلي ، أو قد يضيق معنى الكلمة فتقتصر على ما بعض ما كان يدل عليه معناها الأصلي . وليس يعدم في الكلمات كذلك ما يتغير معناها كل التغير حتى تكاد تنبت كل صلة تربط بين المعنى الأصلي والمعنى المحدث .

× ومن أمثلة الكلمات التي أصبحت تدل على معنى شراً من معناها الأصلي كلمة الشاطر والشطارة ، فقد كان يقال في اللغة العربية الفصحى للرَّجُل المُجَرّب للأُمور : حَلَبَ فُلانٌ الدَّهْرَ أَشْطُرَه ، أَي خَبَرَ ضُرُوبَه ، يعني مَرَّ به خَيْرُه وَشَرُّه وشِدَّتُه وَرَخَاؤُه ، أو يقال : فلانٌ قد حَلَبَ أَشْطُرَه ، أَي قد قاسَى الشَّدَائِدَ والرّخاءَ ، وتصَرّفَ في الفَقْرِ والغِنَى ، ولكن الشاطر في لغة المولدين من بعد أصبح يراد به من أعيا أهله خبثاً ومكراً ، فيقال شَطَر شَطارة ، وأما الشطارة في لغة العامة من المحدثين فقد انقلب معناها مرة أخرى فأصبحت تعني الاجتهاد أو الكياسة ، والشاطر عندهم هو الكَيِّس الفطن أو المجتهد ، أو هو الصَيْرَف أو الصيرفي : وهو المحتال المتقَلِّب في أموره المتصرف فيها والمجرب لها ، وهو الذي يعلم من أين تؤكل الكتف .

× ومن الكلمات ما يتسع معناها بعد ضيق أو يضيق بعد سعة . ومن المعلوم أن معنى الكلمة قد يجمع حدوداً مختلفة ، والحد هو القول الدال على ماهية الشيء ، فالمنضدة ضرب من متاع البيت وأثاثه ، ذات قوائم وسطح أفقي ، توضع عليها الأشياء ،

فهذه حدود أربعة ، فإن زيد فيها حد آخر ضاق معناها كأن يقال إنها خوان يؤكل عليه الطعام ، أو إنها تصنع من الخشب ، وأما إن أنقص من حدود المنضدة بعضها فإن معناها يتسع كأن يقال إنها ضرب من متاع البيت توضع عليه الأشياء ، فلا يلزم من ذلك أن تكون ذات قوائم أو سطح أفقي .

× ومن الكلمات التي ضاق معناها من بعد اتساع في اللهجات العربية كلمة ولد فهي تعني في اللغة الفصحى الطفل ذكراً كان أو أنثى ، ولكن معناها ضاق في كثير من اللهجات العربية حتى أصبحت تقتصر في دلالتها على الذكر دون الأنثى ، وربما كان ذلك لأن كلمة ولد مذكرة في اللغة فاقترن معناها لذلك بالذكور دون الإناث . ونحو ذلك كلمة زوج فقد كاد استعمالها في اللغة المحدثة يقتصر على الذكور من الأزواج دون الإناث ، حتى اضطرهم ذلك إلى وضع كلمة زوجة للدلالة على الإناث من الأزواج ، وإن كانت كلمة الزوج في الأصل عامة الدلالة وتطلق على الأزواج من الذكور والإناث جميعاً .

× وربما عد من ضروب الكلمات التي اتسع معناها بعد ضيق في اللهجات الحديثة إطلاق اسم ضرب تجاري معين ذائع معروف من النتج على الصنف الذي ينسب النتاج إليه . ومن ذلك إطلاق اسم (كلينكس = Kleenex) على المناديل الورقية ، أما في حضرموت فيسمون المناديل الورقية فاين باسم بعض النتج الشهيرة هناك .

× ومن أشكال التغير في معاني الكلمات إطلاق اسم الكل على الجزء كما قد تعرف الحواضر بأسماء بلدانها فيقال لدمشق : الشام ويقال للقاهرة : مصر . وكذلك عرفت جزيرة أوال بالبحرين لأنها كانت مدينة البحرين في الماضي وقس على ذلك .

× ومن مظاهر تغير اللهجات المستمر كذلك نقل الكلمات والمصطلحات الدخيلة من اللغات الأخرى . وهي كلمات واصطلاحات يتناقلها العامة وتعتمد معرفتها على السماع والنقل الشفهي وتختلف من مكان إلى آخر . ومن أمثلة ذلك في لهجة العربان المحدثين من العامة من أهل الشام شيء يسمونه أحياناً الأشتمان أو الأشكمان (وما هو في الحقيقة إلا الكلمة الفرنسية chappement? وتعني المَطْرد أو الأنبوب الذي تطرد منه الأبخرة من السيارة أو الآلة) . والأمي العامي يستعمل من الاصطلاحات ما يستطيع فهمه وإدراكه ولا يراعي دقة في المعنى ولا صحة في العبارة ولا فصاحة ، وكثيراً ما نجد الكلمات الدخيلة على ألسن العامة وهي تلفظ لفظاً غريباً يبعدها عن أصلها وتستعمل في غير معناها الصحيح ، دون مراعاة دقة أو صحة .

× وربما صحفت الكلمات الدخيلة لتقارب كلمات في اللغة الأصلية أيضاً ، فتكتسب هذه الكلمات الأصيلة بذلك معان جديدة . والأمثلة على ذلك من اللهجات العربية كثيرة ، ومن أمثلته في لغة العامة من أهل الشام شيء يسمونه الصُباب (وهو من الكلمة الفرنسية Soupape أي الصمام) وربما صحفه العامة إلى الصَبّاب فجعلوه اسماً مشتقاً من الصبّ .

أخيراً فإن من أهم مظاهر تغير اللهجات تغير قواعد النحو والصرف فيها . وكثيراً ما يكون هذا التغير ناجماً عن أغلاط شائعة تؤدي إلى (غلطات مشهوره) كما كان يقال في اللغة التركية أو Common errors كما يمكن أن يقال في الإنكليزية ، وهذه الأغلاط الشائعة مع ذلك لا يمكن أن تعد (غلطاً) إلا إن تم الاتفاق على لغة معيارية يصح الاحتجاج بها ، فإن تم هذا الاتفاق لم يعد من الممكن للغلط إلا أن يكون غلطاً وإن ذاع وشاع ، ولا يعود صحيحاً أن نقول كما يقول بعضهم أن الغلط (أو الخطأ) المشهور خير من الصواب المهجور .

٢،٢ – ولغات العامة في البلاد الملقبة بالبلاد العربية والتي تعرف باللهجات ليست لغات معيارية ، وإن كان للمعايير خطرها في اللغة وفي جوانب الحياة والمعاش الأخرى كذلك . وقد أشار تقرير نشره مجمع المعايير الألماني إلى أن اتخاذ إشارات المرور الموحدة قد أدى إلى تقليل خطر حوادث السيارات في الطرقات .

وفي استعمال المعايير في الصناعة كما هو معلوم فوائد ليس أهونها الاقتصاد في الوقت والجهد والمال . ويشمل ذلك جوانب العمل كافة بدءاً من الحصول على المواد الخام ومعالجتها وصناعة المواد المصنوعة وتوزيعها وبيعها . وقد قدر بعضهم أن استعمال المعايير في بعض الشركات الأمريكية الصانعة لقطع الآلات قلل من نفقات التصميم فيها

بنسبة ١٠ ؟ ، كما انخفضت نسبة الإخفاق بمقدار ٣٠ ؟ ٩ . ومن العسير تبادل المواد والمصنوعات دون معايير متفق عليها ومقاييس معروفة موثوق بها . وقد قام مجمع المعايير العالمي بين شوال من سنة ١٤٣١ ورمضان من سنة ١٤٣٢ بدراسات موسعة شملت ٢١ شركة موزعة في ١٩ دولة مختلفة وشملت أنواعاً مختلفة من الصناعات وأحجاماً مختلفة من الشركات ، ونشرت نتائج هذه الدراسات في مجلدين ١٠ ، وكانت النتيجة العامة التي توصلت إليها هذه الدراسات هي أن استعمال المعايير قد أدى في كل حالة إلى الحصول على منافع وفوائد خطيرة في كل جانب من جوانب الصناعة والتجارة .

ولا يمكن أن يكون للمقاييس في الصناعة والحياة عامة من معنى إن لم يتم الاتفاق على معيار مصطلح متفق عليه تنسب إليه هذه المقاييس وتقاس إليه . وقد كان الذراع مقياس الأطوال في القديم ولكن الذراع كانت تختلف في تقديرها بين البلاد المختلفة ومن زمان إلى آخر ، فلم يكن للذراع معيار واحد متفق عليه ، حتى قام الفقهاء فاصطلحوا على ذراع شرعية أمكن عندئذ أن تنسب سائر الأذرع إليها فتصنف صحيحة بالقياس إلى هذه الذراع الشرعية أو تعد خاطئة (الجدول ١) . ويضرب بعضهم مثالاً على هذه الفوضى في المقاييس ما كان عليه الحال في مواضع من ألمانية نحو سنة ٩٥٧ " ففي ناحية بادن وحدها كان يوجد ١١٢ مقياس مختلف للطول ، و ٩٢ مقياساً للمساحة ، و ١٦٣ مكيال مختلف للحبوب ، و ٦٣ مكيالاً للسوائل ، و٨٠ مقياساً للأوزان " ١١ . وما كان يمكن للعلماء والمهندسين من البلدان والحضارات المختلفة في هذا العصر أن يتفاهموا ويتواصلوا دون نظام موحد للمقاييس والمكاييل والموازين كما جاء في تقرير لمجمع المعايير الألماني ، فقد أصبح للعلماء والمهندسين مرجع معتمد متفق عليه فيما يستعملون من هذه المقاييس والمكاييل والأوزان ١٢ .

وليس الخلاف في اللهجات والاصطلاحات بأقل خطراً من الخلاف في المقاييس والمكاييل والأوزان . وقد أحصى بعضهم لكلمة واحدة في اللغة الإنكليزية الوسطى (وهي كلمة Through) خمسمئة طريقة مختلفة في الهجاء ١٣ . وكما لا يمكن أن يكون للمقاييس من معنى إن لم يتم الاتفاق على معيار مصطلح متفق عليه فكذلك لن يكون للغة من معنى إلا أن يصطلح على معيار لها ثابت متفق عليه . ولو ترك الأمر فوضى لضاعت المقاييس وضاعت المعاني على السواء . ومن المعروف أن فوضى الاصطلاح في اللغة العربانية قد جعل من العسير للعلماء والمهندسين التفاهم والتواصل بهذه اللغة .

ولعل أقرب الطرائق وأيسرها في تقويم أثر المعايير وخطرها طريقة قد تعرف بطريقة أرأيت (أو What if approach) ، وهي طريقة تقوم على تقدير أسلوب الأداء وكفاءته في الحالة التي لا يصطلح فيها على معايير متفق عليها ١٤ . ولعل خير مثال ذي صلة باللغة نضربه لذلك أسماء النبات والحيوان ، فاللبس والاختلاط في هذه الأسماء في اللهجات المختلفة كثير ، وليس يمكن تعيين النوع المطلوب من الحيوان أو النبات من أسمائه الشائعة في هذه اللهجات . وقد اصطلح علماء الفرنجة لذلك على وضع أسماء للأحياء من الحيوان والنبات باللغة اللاتينية ، فاتخذوا من هذه الأسماء أسماء معيارية متفقاً عليها يدرك معناها كل عالم مختص بدراسة هذه الأحياء ، ولولا هذه الأسماء لاختلطت الأمور وحدث اللبس فلا يكاد القارئ يعلم مقصد الكاتب أو مراده ، وضاعت الفائدة من كتابته أو مقالته .

الجدول ١ : اختلاف تقدير الذراع في البلاد والأزمان المختلفة

الذراع	مقدارها بالأصابع	مقدارها بعشير المتر (السنتيمتر)
الذراع الشرعية	٢٤ ص	٤٨ سم
ذراع البريد		٤٧ سم
الذراع اليوسفية ١٥		٥٠،٠٠٠ سم

الذراع السوداء ١٦	$\frac{2}{3}$ ٢٥ صع	٥١،٣٣٣ سم
ذراع الحديد	$\frac{8}{7}$ × الذراع الشرعية	٥٤،٩ سم
الذراع العمرية ١٧		٥٥ سم
الذراع الهاشمية الصغرى ١٨	$\frac{1}{3}$ ٢٨ صع	٥٦،٦٦٧ سم
الذراع البلدية المصرية ١٩		٥٨ سم
الذراع الهاشمية ٢٠		٦٠ سم
الذراع الهاشمية الكبرى ٢١	$\frac{1}{3}$ ٣١ صع	٦٢،٦٦٧ سم
الذراع الإصطمبولية ٢٢		٦٧،٥ سم
ذراع النجار ٢٣		٧٢ سم
الذراع المعمارية ٢٤		٧٥ سم
ذراع المابهرامي ٢٥	٣٨،٥ ص	٧٧ سم
الذراع الأكبرية ٢٦		٨٢ سم
الذراع الكبيرة	٤٢ ص	٨٤ سم
الذراع المأمونية ٢٧		١،١٠ م
الذراع الميزانية ٢٨	$\frac{1}{9}$ ٦٩ ص	١،٣٨ م

وفي الفواكه نوع معروف أبيض الزهر وثمرته حلوة مدورة رقيقة القشرة ، ملساء السطح ، وقد يكون لها في جانبها حَزّ ، وهي كالجوزة أو النُبْلة في حجمها ، ويختلف لونها بين الخضرة والصفرة والحمرة الداكنة ، وفي جوفها نواة واحدة صلبة . وهذا الوصف على دقته وتفصيله غير كاف في تعيين هذه الفاكهة ، ولكن تعيينها يغدو يسيراً إن ذكر مع هذا الوصف اسمها المصطلح عليه في اللغة اللاتينية أو اسمها العربي . أما أسماؤها في اللهجات العربية المحدثة فمختلفة متباينة . فهذه الفاكهة تعرف في الشام بالخوخ ، وفي مصر بالبرقوق ، وفي العراق بالعنجاص ، ولو اجتمع شامي وعراقي ومصري فذكر كل منهم هذه الفاكهة بالاسم الشائع في بلده لما فهم بعضهم عن بعض ولحدث الالتباس الشديد وسوء الفهم .

فالخوخ اسم معروف في مصر ، ولكنه لا يطلق على هذه الفاكهة وإنما يطلق على نوع آخر مختلف ، وكذلك الإنجاص اسم معروف في الشام ولكنه يطلق على نوع ثالث من الفواكه ، ثم إن البرقوق يطلق في المغرب على المشمش وهو أصل الكلمة التي يعرف بها المشمش في بعض اللغات الفرنجية كالإنكليزية (Apricot) . فكيف يمكن للشامي والعراقي والمصري والمغربي إن اجتمعوا أن يتفاهموا إن لم يتفقوا جميعاً على لغة واحدة معيارية يعرفونها جميعاً . أما الاسم العربي لهذه الفاكهة التي كان عنها الحديث فهو الإجّاص واسمها في اللغة اللاتينية المعيارية (Prunus domestica) . وأما الفاكهة التي تعرف في مصر بالخوخ فهي الفاكهة التي تعرف في الشام بالدراق أو الدراقن ، وأما الإجاص (أو الإنجاص) فيطلق في الشام على الكمثرى ! والبُرْقوق هو صغار الإجاص أو هو نوع من الإجاص البري الصغير ، وبه سمي الملك الظاهر سلطان مصر المتوفى سنة ٨٠١ . ويعرف الإجاص في اللغة التركية العثمانية باسم اَريك ، ومنه جانْ اَري□ى أو الجانرك (أو الجانيرك أو الجارينك) المعروف في الشام ، وهو ضرب من الإجاص الأخضر المستنبت من البرقوق (الشكل ٤) . وكذلك يتبين أنه لا يمكن التفاهم ولا يصح إن لم يتم الاتفاق على لغة واحدة معيارية .

ووضع اللغة المعيارية واختيارها أمر ضروري لكل أمة من الأمم . فاللغة المعيارية تجمع أبناء الأمة الواحدة الذين قد يفرقهم اختلاف اللهجات بينهم ، ولا بد في التفاهم بين أبناء الجماعات المختلفة في لهجاتها من لغة واحدة معيارية يمكنهم استعمالها للتفاهم والتخاطب فيما بينهم . وكذلك فقد لا يفهم الشامي عن المغربي ولا يفهم المغربي عن الشامي إن لم يختارا الحديث باللغة العربية الفصحى . وقد يشاهد نحو ذلك في كثير من اللغات الأخرى ، فلا يفهم الألماني الشمالي عن الألماني الجنوبي كما لا يفهم الألماني الجنوبي عن الشمالي إن تكلم كل منهما بلهجته الخاصة به .

وباللغة المعيارية تمتاز الأمة كذلك عن الأمم الأخرى سواها . ومن الملاحظ في كثير من المواطن والبقاع أن اللهجات تتغير فيها تغيراً مستمراً بلا فاصل واضح بينها ، ومن ذلك تغير اللهجات في الأندلس بعد سقوطها بيد النصارى وتوزع السلطان فيها بين دولتي البرتقال وإسبانية ، فليس من حد فاصل بين اللهجات التي تعد إسبانية واللهجات التي تعد برتقالية ، وربما كان التفاهم بين لهجتين متجاورتين تعد إحداهما إسبانية وتعد الأخرى برتقالية أيسر وأسهل من التفاهم بين المتكلمين بلهجتين إسبانيتين متباعدتين . وليس من وسيلة يمكن بها ميز إحدى الأمتين من الأخرى إلا بوضع اللغة المعيارية المختصة بكل أمة منهما . وفي ذلك يقول Paul Garvin ٢٩ :

The importance of the function of a standard language to assert separate identity of a speech community is quite clear; it is by developing its own standard language that a speech community moves from the status of being a dialect community to the status of being a language community، thus distinguishing itself from another language community that may be related and/or politically

.dominant

وبلغتها المعيارية دون لهجاتها المختلفة المتباينة تستطيع الأمة أن تشارك في التقدم العلمي والحضاري .

ولا بد من اللغة المعيارية أخيراً لمعرفة ما يصح في اللغة وما لا يصح وما يحسن وما لا يحسن . ويرى نفر من المحدثين أنه لا يوجد في اللغة غلط وصواب ، فليست اللغة العربية الفصحى خيراً من لغة العامة في أي عصر من العصور أو في أي مصر من الأمصار ، وهذه كلمة حق يراد بها باطل ، فهذا المذهب وإن كان مذهباً صحيحاً في مبدئه ولا خلاف فيه ، وقد بينا أن اللغات واللهجات جميعاً سواء ، فإنه مع ذلك مذهب باطل إن أريد به نفي الحاجة إلى وضع المعايير في اللغة . وكذلك فإن المتر الإمام في باريس ليس خيراً من الذراع

أو الباع أو القدم أو الشبر ، ولكن ذلك لا ينفي ضرورة اتخاذ هذا المتر أو غيره معياراً يتفق عليه وتنسب إليه المقاييس وتقاس إليه . والمعيار إن تم الاتفاق عليه والاصطلاح فليس يحسن تغييره من بعد ، ولا معنى لقول من يقول عندئذ إن المتر الإمام لا يمتاز في شيء عن أي قصبة أو طول يمكن اعتماده في القياس . وكذلك يجوز بعد اتخاذ هذا المتر الإمام أن تقاس به المقاييس وتنسب إليه فتصنف صحيحة أو تصنف خاطئة بالقياس إليه وإن لم يكن بين المتر الإمام وبين هذه المقاييس المختلفة من فارق من حيث المبدأ قبل اتخاذ المتر الإمام معياراً . وكذلك فإنما يراد بالغلط والصواب في اللغة قياسها باللغة المتخذة معياراً ، وليس للغلط أو الصواب في اللغة من معنى سوى ذلك ، ولا صلة لهذا الغلط والصواب بفضل اللغة على اللهجة أو فضل اللهجة على اللغة . وكذلك فإن الماء قد يعرف في اللغة العربية بهذا الاسم ، أو قد يعرف بكلمة أخرى أيضا مشتقة منها أو مغايرة لها ، فقد يعرف الماء باسم المي أو المية أو قد يعرف باسم آب أو صو أو پانى أو غير ذلك من الكلمات والأصوات ولا فارق بين هذه الكلمات في العبارة على الماء ، فإن تم الاصطلاح في اللغة بعد ذلك على كلمة من هذه الكلمات فإن كل كلمة أخرى مغايرة لها تعد عندئذ غلطاً ، وإن كان لا فارق في الأصل بين الكلمات والأصوات المختلفة في العبارة عن أي معنى من المعاني . وكذلك فإن الغلط والصواب في اللغة وفي المقاييس لا يكونان إلا بعد وضع المعايير واتخاذها ، وأما قبل ذلك فلا غلط ولا صواب .

ولحرف الجيم في اللهجات العربية المختلفة ألفاظ مختلفة ، فقد يلفظ هذا الحرف جيماً ، أوقد يلفظ ياء في بعض البلاد أو كافاً فارسية (گ) أو قد يلفظ زاياً فارسية (ژ) ، ولا فارق بين هذه الألفاظ من حيث الأصل وليس بعضها خيراً من بعض . وإنما ينشأ التمييز بين الصحيح من هذه الألفاظ وغير الصحيح عند نسبة هذه الألفاظ إلى لفظ الجيم في اللغة العربية الفصحى ، وهو المعيار الذي ينبغي نسبة هذه الألفاظ إليه فيقبل منها عندئذ ما يطابق هذا المعيار ويعد ما سوى ذلك غلطاً ينبغي تصحيحه . أما في اللغة الإنكليزية حيث لم يصطلح الناطقون بهذه اللغة على معيار مصطلح عليه فقد جاز أن يختلف لفظ الرموز والكلمات في هذه اللغة بين ناحية وأخرى . وكذلك جاز في اللغة الإنكليزية أن يلفظ رمز S زاياً أو سيناً كما في كلمة Usage التي يصح أن تلفظ بالسين أو بالزاي في آن واحد . وليس من مرجع متفق عليه فيما ينبغي أن يكون عليه اللفظ في هذه الكلمة أو غيرها من الكلمات .

ولكن الأمر لم يترك فوضى كذلك في كثير من اللغات ، بل أوكل وضع المعايير في هذه اللغات لمجامع لغوية مختارة ، ومن ذلك المجمع الفرنسي (Académie française) والألماني (Rat für deutsche Rechtschreibung) والإسباني

(Real Academia Espa?ola) وغيرها . وكذلك أراد نفر من أدباء العربية وأولي الأمر فيهم أن ينهجوا نهجاً يحاكون فيه ما فعل أهل تلك اللغات فألفت المجامع اللغوية العربية تقليداً ومحاكاة للمجامع اللغوية الفرنجية ومن ذلك مجامع اللغة في القاهرة ودمشق وغيرهما (الجدول ٢) ، ولكن هذه المجامع لتفرقها وضعفها وضعف القائمين عليها لم يتح لها أن تقوم بما كان ينتظر منها أن تقوم به ، فبقيت بعيدة في عزلتها عن واقع اللغة العربية في بلدانها وفي سائر البلدان الأخرى ، ولم يكن لها من أثر يذكر في هذه البلدان أو غيرها ، بل ربما جعلت مثار هزء الهازئين وتفكه المتفكهين .

وقد كان معيار اللغة العربية الفصحى عند قدماء النحويين واللغويين لغة القرآن الكريم أو لغة قريش في عصور الاحتجاج وهي العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، فقد اتخذ النحويون لغة قريش في عصور الاحتجاج معياراً للغة العربية الفصحى (Standard) ، وقيدت اللغة العربية بذلك مع إهمال ما كان يحدث من التغير في لغة الخطاب اليومي بين العصور عصراً بعد عصر ، أو ما كان يوجد من خلاف بين الأمصار المتقاربة أو المتباعدة . وقد بقي هذا المعيار هو الأصل في اللغة العربية الفصحى إلى مطلع عصر الفرنجة الحديث .

الجدول ٢ : مجامع اللغة العربية

× مجمع اللغة العربية بدمشق
× مجمع اللغة العربية بالقاهرة
× المجمع العلمي العراقي في بغداد
× المجمع العلمي اللبناني
× مجمع اللغة العربية الأردني
× مجمع اللغة العربية في حيفا
× مجمع اللغة العربية السوداني في الخرطوم
× المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر
× أكاديمية اللغة العربية (مكتب تنسيق التعريب) في الرباط .
× مؤسسة بيت الحكمة في تونس
× مجمع اللغة العربية الليبي
× الأكاديمية العربية الماليزية
× معهد اليمن للغة العربية

أخيراً قد أصبح من اليسير في هذا العصر نشر اللغة المعيارية في طبقات الأمة المختلفة بفضل التلفاز والتعليم الإجباري ، ولم يعد لدعوى العسر والصعوبة في ذلك من معنى ، ومن المشاهد في البلاد العربانية المحدثة انتشار المعرفة باللهجة المصرية خاصة لانتشار البرامج التلفازية والأغاني المذاعة بهذه اللهجة ، وقد كان يمكن بيسر وسهولة بدلاً من ذلك نشر اللغة العربية الفصحى بأغان عربية وبرامج فصيحة . ومثل ذلك يقال عن انتشار الكلمات والتعابير الأمريكية بين الناطقين باللغة الإنكليزية والطارئين على هذه اللغة وذلك لغلبة البرامج والأفلام الأمريكية وانتشارها الواسع في أرجاء العالم المختلفة ، حتى دخلت العبارات والاصطلاحات الأمريكية الأصل لغات العالم كلها أو أكثرها .

٢،٣- ولغات العامة في البلاد الملقبة بالبلاد العربية لهجات لا تصلح للتعبير الدقيق والبيان . فالتبسيط هو السمة الأخرى التي تتصف بها اللهجات ، وهي سمة من أبرز سمات اللهجات ، إذ تتسم اللهجات في إجمالها بميلها إلى التبسيط طلباً لليسر والسهولة وتقليل الجهد المبذول ، ومن أمثلة ذلك في اللغات المختلفة إهمال المثنى كما حدث في اللهجات العربية ، أو

إهمال الإعراب ، أو إسقاط بعض الضمائر وغير ذلك . وقد يجد الباحث أن هذا التبسيط الذي يخل بالمعنى قد يحمل في كثير من الأحيان على خطة تعويض تعقد ولا تبسط ، وهو ما قد يقال له في اللغة الإنكليزية (Repair or compensatory mechanism) ، ومن ذلك أن المرء قد يضطر إلى إضافة كلمات جديدة لتعويض النقص الناجم عن هذا التبسيط ، ومثال ذلك أن المرء قد يضطر إلى أن يضيف كلمة (كليكما) للدلالة على الاثنين في اللغات التي أهمل المثنى فيها .

وغالباً ما يؤدي التبسيط إلى افتقاد الدقة في العبارة ، وقد يحمل ذلك على الاقتصار في بعض اللهجات على كلمة واحدة لتؤدي معاني طائفة من التصورات ، أو قد يؤدي إلى استعمال الكلمات المختلفة التي تدل على معان متقاربة استعمالاً لا يميز بعضها من بعض .

والاقتصار على كلمة واحدة لتؤدي معاني طائفة من التصورات من أشكال التبسيط الأخرى المخلة بالمعنى . ومن أمثلة ذلك في لغات العامة المحدثين من العربان كلمة (الفيول) التي تستعمل اسماً للسائل الخام الخارج من برج التكرير الجوي وللوقود السائل الثقيل المستعمل في الأفران والسفن وغيرها فكلاهما في كلام العامة (فيول) . كذلك فإن المادة الكربونية السوداء الصلبة التي يتحول إليها الخشب إذا عولج بالحرارة وهي المادة المستعملة في شي اللحوم والكبة فحم ، وكذلك المادة المستخرجة من المعادن والتي كانت إلى عهد قريب مصدر الطاقة الأول في العالم هي كذلك فحم . والمادة التي تصنع من هذا الفحم بالمعنى الثاني وتستعمل في صناعة الحديد وفي الحرق في المنازل للتدفئة وغيرها فحم أيضاً . وإذا أخرجت المصفاة مادة سوداء كربونية من بعض مشتقات النفط فهذه المادة هي الأخرى فحم . والأمي العامي يخلط بين هذه المواد كلها ولا يهمه أن يميز بعضها من بعض ، وهو لا يعلم ما بين هذه المواد من اختلاف في البنية والتركب الكيميائي والخصائص ، فهي جميعاً عنده فحم .

ومن أمثلة التبسيط استعمال الكلمات المختلفة التي تدل على معان متقاربة استعمالاً لا يميز بعضها من بعض فيستعمل العامة كلمات النسر والعقاب والصقر وكأنها أسماء مترادفة لطائر واحد .

٢،٤- واللغة في حقيقتها لهجة مكتوبة مقيدة ، والكتابة في حقيقتها تقييد وربط كما يدل على ذلك المعنى الأصلي لهاتين الكلمتين . يقال : كَتَبَ السِّقَاءَ والمَزَادَةَ والقِرْبَةَ يَكْتُبُه كَتْباً ، فهو كَتِيبٌ ، وأكتبه إكْتاباً ، واكْتَتَبَهُ فهو مُكْتَتِبٌ : شدَّ فَمَهُ حتَّى لا يَقْطُرَ منه شَيْءٌ ، أو شَدَّه بالوكاء ، أو خَرَزَهُ بسَيْرَيْن . وقاد الدابة قياداً وقيّدها : جعل في رجلها القيد . ومن المجاز تَقْيِيدُ الكتَابِ أي شَكْلُه ، وكتابٌ مُقَيَّدٌ : مَشْكُولٌ ، وتَقييد الخَطِّ : ضَبْطُه وإعجامُه وشَكْلُه ، وتَقْيِيدُ العِلْم بالكتابِ ضَبْطُه .

× وقد ساعد انتشار الكتابة على الحد من تغير اللهجات المكتوبة ، ولا سيما بعد أن ابتدع الإنسان الأحرف الصوتية فقيد بذلك لفظ الكلمات ومعناها ، بعد أن كانت الكتابة الأولى تعتمد على الصور ولا تعتمد على اللفظ ، فلم تعد لغة الكتابة تتغير بتغير لغة الخطاب . وكان من أثر ذلك أن بدأت لغة الكتابة بعد تقييدها بالابتعاد عن لغة الخطاب وإن كانت لغة الخطاب هي الأساس الذي أقيمت عليه لغة الكتابة ، وأدى ذلك في كثير من الأحوال إلى ظهور نمطين مختلفين من اللغة التي كانت في أصلها لهجة واحدة . وكذلك اختلفت لهجات الخطاب العامة عن لغة الكتابة كما هو مشاهد كثير من اللغات ، فاختلفت اللهجات العربية المختلفة عن اللغة العربانية وعن اللغة العربية الفصحى ، كما اختلفت اللغة اليونانية الفصحى (????????????) عن لغة العامة (????????) واختلفت اللغة اللاتينية الفصحى (Classical Latin أو Latinitas) عن لغة العامة (Vulgar Latin أو Sermo vulgaris) وهلم جرا . وتعرف ظاهرة الازدواج اللغوي هذه باسم Diglossia في اللغة الإنكليزية . وظاهرة الازدواج اللغوي ظاهرة فيما نظن طبيعية لا بد منها ، إذا ما أخذنا في الحسبان هذا الفارق الذي يفرق بين اللغة المكتوبة المقيدة ولهجات الخطاب الدائمة التغير ، وهي ظاهرة منتشرة في كثير من البلدان ومنها بلدان الهند والصين وكثير سواهما من البلدان .

× وربما ظن بعضهم أنه يحسن في الأحوال التي يزيد الفارق فيها بين اللغة المكتوبة ولهجات الخطاب إهمال اللغة المكتوبة

الفصحى واختيار بعض اللهجات وتقييدها بالكتابة ليزول هذا الفارق بين اللغتين ، وتصبح لغة الكتابة ولغة الخطاب لغة واحدة ، فيسهل على المتكلمين بلغة الخطاب تعلم الكتابة ونحو ذلك . وقد فات هؤلاء مع ذلك أن اللهجات كثيرة كثرة فاحشة ومختلفة فيما بينها ، فيجد المتكلم ببعض هذه اللهجات نفسه مضطراً إلى اتخاذ اللغة الفصحى في خطابه كلما خاطب أبناء اللهجات الأخرى . وأما اختيار بعض هذه اللهجات المختلفة ليكون لغة معيارية أو لغة كتابة فإن ذلك لا يجدي في إزالة الفارق بين اللغة المكتوبة ولغة الخطاب إلا بالقياس إلى هذه اللهجة الواحدة المختارة دون سائر اللهجات . فلا توجد في البلاد العربية من مشرقها إلى مغربها لهجة واحدة يصح أن تتخذ معياراً للغة المكتوبة ، بل إنه لا توجد في البلد الواحد لهجة واحدة ، فلا توجد في الشام لهجة شامية واحدة كما لا توجد في مصر لهجة واحدة يصح أن يقال إنها مصرية ، وقد يختار أهل مصر أن يتخذوا لهجة أهل القاهرة لغة الكتابة عندهم ، فيبتعدوا بذلك عن سائر البلاد العربية ، كما يفقدوا صلتهم باللغة العربية الفصحى ، ولكنهم وإن قربوا بذلك بين لغة الكتابة والخطاب بالقياس إلى أهل القاهرة ، فإن ذلك لا يقرب كل التقريب بين لغة الكتابة القاهرية ولهجات أهالي سائر المدن والقرى في مصر ، فيبقى الخلاف بالقياس إلى هؤلاء بين اللغتين .

× أضف إلى ذلك أن اللهجة المكتوبة وإن جعلت لغة الكتابة فإنها سوف تأخذ بعد حين بالابتعاد عن لهجات الخطاب وتصبح لغة فصحى ، لأن الكتابة تحد من التغير اللغوي ، وسرعان ما يعود الفارق بين اللغتين ، فلا تحقق كتابة بعض اللهجات أي نفع ولا ينفع اختيارها لغة كتابة شيئاً ولا يجدي إلا أنه يستبدل لغة فصحى بأخرى مع بقاء الفارق بين اللغة المكتوبة ولهجة الخطاب اليومي . فالخلاف في اللغة بين الشكل المكتوب المقيد منها والشكل المستعمل بين العامة في الخطاب اليومي خلاف لا يمكن إبطاله ، وإن أمكن تقريب شقة الخلاف من حين إلى آخر بالقياس إلى بعض اللهجات دون سائرها ، ولكن هذا التقريب لا يكون إلا موقوتاً ثم يبدأ الخلاف بعد ذلك بالازدياد حين تبدأ لهجات الخطاب بالابتعاد عن اللغة المتخذة لغة كتابة ، ولا بد عندئذ من تبديل لغة الكتابة لتقريبها من لغة الخطاب كل حين وآن . ومن ناحية أخرى فإن التقريب بين لغة الكتابة ولغة الخطاب قد يمكن بانتشار التعليم دون حاجة إلى ابتداع لغة كتابة جديدة في كل حين .

× وربما حسب نفر من العلماء أن ظاهرة الازدواج اللغوي قد تشبه في كثير من جوانبها اعتماد لغة غريبة لا صلة لها بلغة الخطاب اليومي لتكون لغة العلم والتعليم أو لغة السلطان ، ومن ذلك اعتماد اللغة الإنكليزية في الهند وبلاد المشرق العربي وكثير غيرها من البلدان التي كانت تابعة للإنكليز ، أو اعتماد اللغة الفرنسية في بلاد المغرب (العربي) وكثير من بلاد السودان . ومن أعجب العجب أن الذين ينكرون بعد ما بين اللغة العربية الفصحى ولهجات العامة ويدعون إلى اتخاذ بعض لهجات العامة لغة كتابة ليقربوا بزعمهم بين العلم والعامة وتجدهم يعيدون ويبدئون في ذلك ولا يملون منه وإن مل كل الملل من يسمعهم أو يقرأ لهم ، فهؤلاء لا ينكرون اتخاذ اللغات الأعجمية كالإنكليزية والفرنسية لغات علم وتعليم ، بل تجدهم يدعون إلى ذلك ويغالون فيه كل الغلو وينسون عندئذ أو يتناسون ولا يذكرون ما بين هذه اللغات الأعجمية ولهجات الخطاب عند العامة من بعد الشقة والخلاف ، فكأن التقريب بين لهجات العامة ولغة العلم والتعليم أمر لا يذكر إلا حين يتصل الأمر باللغة العربية الفصحى وحدها دون سواها من لغات الأعاجم من الفرنجة من الإنكليز أو الفرنسيين .

× وكذلك فإن اللغات قد تتعدد في كثير من بلاد العربان بين لهجات الخطاب اليومي واللغة العربانية المعتمدة في هذه البلاد ، واللغة العربية الفصحى التي ما تزال تستعمل أحياناً ولا سيما حين يتصل ذلك بالدين الإسلامي أو الأدب العربي ، ثم اللغة المعتمدة في المدارس والتعليم ، وهي اللغة الإنكليزية في المشرق والفرنسية في المغرب ، وقد تضاف إلى هذا الخليط أيضاً لهجات غير عربية في أصولها ما تزال تستعمل في بعض البلاد ومنها لهجات البربر في المغرب (العربي) ، وقد كانت هذه اللهجات تقتصر على الخطاب اليومي ، ولكن نفراً من المتفرنجين يريدون كتابة هذه اللهجات وتقييدها واتخاذها لغات معتمدة أيضاً لغايات لا تخفى على أحد .

× وليس من الضروري أن تساير اللغة المكتوبة لغة الخطاب والحديث أو لهجات العامة المتغيرة . بل يذهب نفر من علماء اللغة ولا سيما العلماء الذين ظهروا في مدينة فراغة (Prague) إلى امتياز اللغات المكتوبة بخصائصها العامة وسماتها واختلافها

في ذلك كل الاختلاف عن لهجات العامة ، وينبغي لذلك ألا تتبع اللغات المكتوبة لهجات العامة أو ترتبط بها وتتعلق بأذيالها .

× وليس من الضروري أن تتغير اللغة ، ولا فائدة ترجى من هذا التغيير ، وقد أجمع علماء اللغة على أن جميع اللغات البشرية صالحة لاستيعاب جميع أنواع العلوم والآداب وأنه لا وجود للغة يمكن أن يقال عنها إنها بدائية ، كما أجمع الدارسون بلا خلاف على أن اللغات جميعاً سواء في درجة تعقدها ومقدرتها على التعبير ٣٠ ، فإن ضعفت عن ذلك لغة من اللغات في وقت من الأوقات فمرد ذلك دائماً إلى عجز أبنائها لا عجز اللغة في أصلها . وكما يقول Jonathan Swift ٣١ :

«I see no absolute Necessity why any Language would be perpetually changing.»

واللغة تحقق غاياتها في نقل المعلومات والتواصل تحقيقاً أفضل إن لم تتغير كما يقول بعض العلماء الباحثين ٣٢ .

وكذلك فإن التغير الذي يطرأ على اللغة بعد تقييدها يجب ألا يغير من قواعد النحو والصرف فيها ، بل يعد كل تغير من هذا القبيل خطأ ينبغي تصحيحه إذ لا حاجة به ولا فائدة له ، فاستقرار اللغة وثباتها مطلب مهم لا يمكن إهماله . وكما كتب الأديب الإنكليزي Jonathan Swift في حديثه عن اللغة الإنكليزية يقول (نحو سنة ١١٢٤) :

Some method should be thought on for ascertaining and fixing our language for ever (…) it is better a language should not be wholly perfect، than that it should be perpetually changing.

وكذلك يقول بعض الباحثين ٣٣ :

the rules of language correctness once developed have to be observed in a consistent manner ... in order to insure stability and with an open mind in order to insure flexibility.

× أما هذه المرونة المرغوب بها فذات صلة بالأمور التي يجوز أن تتغير في اللغة وهي أمور تقتصر على إضافة المفردات والاصطلاحات الجديدة للمعاني الجديدة لا ابتداع كلمات جديدة لمعان قديمة أو تحوير الكلمات القديمة أو تصحيفها ، فهذا أمر يضر ولا ينفع .

وبعد ، فهذا بيان لواقع اللغة العربية في بلاد العربان الملقبة بالبلاد العربية ، وهو واقع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وهو واقع يناظر واقع البلاد الملقبة بالبلاد العربية في جوانب الحياة كلها من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية ، فأما المتشائم فلا يرى في الأفق القريب بادرة واحدة من بوادر الأمل والرجاء ، ولا ينتظر لهذه اللغة العربية مصيراً خيراً من مصيرها في الأندلس وصقلية وسائر البلاد التي كانت في الماضي القريب أو البعيد عربية ، ومنها هذا الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الشام الذي لقبه البريطانيون بفلسطين ونقل ذلك عنهم العربان المحدثون ، وإن كان لفلسطين في الاصطلاح العربي الفصيح دلالة أخرى يعرفها من يعرف العربية الفصحى ويعلم دلالات الألفاظ والاصطلاحات فيها ، وأما المتفائل فيقول إن الأيام حبلى لا يدرى ماذا تضع ، وإن ما وضعته حتى اليوم من كل ممسوخ الخلق أو شائهه لا يدل دلالة أكيدة على ما يمكن أن تضعه في المستقبل القريب أو البعيد ، وليس على الله بعزيز أن تلد العاقر وأن تنجب الخرقاء ، وأن تخضر الصحراء ويتفجر من الحجارة الماء ، وما علينا في انتظار ذلك الحين ، سوى أن نقعد مع القاعدين ، ونلهو ونلعب حتى يأتينا اليقين .

الهوامش

١ بين العربية والعربانية ، لحسان الحاج إبراهيم ، المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية ، المجلس الدولي للغة العربية ، دبي ، ٨ – ١١ رجب ١٤٣٥ ، كتاب المؤتمر ، المجلد الأول ، ص ١٨٦ – ٢٠٣ .

٢ يقال : هو بين المطرقة والسندان ، إذا كان بين أمرين كلاهما شر .

٣ بين العربية والعربانية ، لحسان الحاج إبراهيم ، المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية ، المجلس الدولي للغة العربية ، دبي ، ٨ – ١١ رجب ١٤٣٥ ، كتاب المؤتمر ، المجلد الأول ، ص ١٨٦ – ٢٠٣ .

٤ جنة الشوك ، لطه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٩٧ ، ص ٦٤ – ٦٥ .

٥ العقد الفريد ، لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٢ ، الجزء السادس ، ص ٣٣٢ .

٦ أسباب النزول ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ، عالم الكتب ، بيروت ، ص ١٤٢ .

٧ مجلة العربي ، الكويت ، العدد ١٢٩ ، ص ٧٦ .

٨ خطر الترجمة في عصر الفرنجة وأثرها في إفساد اللغة العربية المحدثة ، لحسان الحاج إبراهيم ، المؤتمر الثاني للغة العربية ، المجلس الدولي للغة العربية ، دبي ، ٢٧ جمادى الآخرة – ١ رجب ١٤٣٤ .

٩ Economic benefits of standards، ISO methodology ٢,٠، International Organization for Standardization، ٢٠١٣.

١٠ Economic benefits of standards، International case studies، vol ١، August ٢٠١١، vol. ٢، August ٢٠١٢.

١١ Robert L. Heilbroner، The worldly philosophers، Touchstone، New York، ١٩٩٩، p. ٢٢.

١٢ DIN Fundamentals in Technology Standards Committee.

١٣ Jeremy J. Smith. An historical study of English، Routledge، London، ١٩٩٦، p. ٧٦.

١٤ Economic benefits of standards، ISO methodology ٢,٠، International Organization for Standardization، ٢٠١٣.

١٥ وأول من وضعها أبو يوسف القاضي وبها تذرع القضاة الدور بمدينة السلام .

١٦ وأول من وضعها الرشيد قدرها بذراع خادم أسود كان على رأسه ، وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

١٧ والذراع العمرية وهي ذراع عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي مسح بها أرض السواد ، وهي تعدل نصف الذراع المأمونية أي تعدل ٥٥ سم ، وجاء في كتاب الحاوي أن الذراع العمرية تعدل نصف الذراع الميزانية ، أي تعدل ٦٩،١١ سم . قال موسى بن طلحة : رأيت ذراع عمر التي مسح بها أرض السواد ، وهي ذراع وقبضة وإبهام قائمة . قال الحكم بن عتيبة : إن عمر رضي الله عنه عمد إلى أطولها ذراعاً وأقصرها ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها ، وزاد عليها قبضة وإبهاماً قائمة ، ثم ختم في طرفيه بالرصاص ، وبعث بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف حتى مسحا بها السواد ، وكان أول من مسح بها عمر بن هبيرة .

١٨ وهي الذراع البلالية وأول من أحدثها بلال بن أبي بردة (المتوفى سنة ١٢٦) ، وذكر أنها ذراع جده أبي موسى الأشعري ، وكان يتعامل بها الناس بالبصرة والكوفة .

١٩ وهي الذراع التي اعتمدت في مصر سنة ١٣٣٢ .

٢٠ والذراع الهاشمية = ٦٠ سم ، وهي ذراع المساحة ، وذراع الملك ، وذراع كسرى ، وفسر الزمخشري ذراع الجبّار التي ذكرت في الحديث الشريف بأنها ذراع الملك ، فقد جاء في مسند أحمد في صفة الكافر في جهنم (وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار) . وكانت الذراع الهاشمية تعرف في الأندلس بالذراع الرشّاشية لأن أول من أدخلها إلى الأندلس محمد بن الفرج القَسّام المعروف بالرشّاش . وأورد القلقشندي أنهم اصطلحوا في مصر على قياس أرض البنيان والدور بذراع تعرف بذراع العمل ، وأورد المقريزي أن ذراع العمل هذه هي الذراع الهاشمية ، وذراع العمل تعدل بذلك ٦٠ سم .

٢١ وقدرها بعضهم بأنها تعدل ذراعاً شرعية وثلث الذراع أي تعدل ٣٢ إصبعاً = ٦٤ سم . والذراع الهاشمية الكبرى هي الذراع الزيادية ، وسميت زيادية لأن زياد بن أبيه مسح بها أراضي السواد ، وهي الذراع التي كان يذرع بها أهل الأهواز ، ثم أقر المنصور العباسي العمل بهذه الذراع في مدينته الهاشمية فعرفت هذه الذراع بعد ذلك بالذراع الهاشمية الكبرى .

٢٢ والذراع الإصطمبولية وهي الذراع الإسلامبولية = ٦٧،٥ سم ، وهي الذراع المعروفة في حمص . وقد اختلفت مع ذلك هذه الذراع مع الزمن وفي البلدان المختلفة ، فقدرها Lane في القرن الثالث عشر بأنها نحو ٢٦،٥ إنشاً أي ٦٧،٣١ سم ، وقال علي باشا مبارك إنها تساوي ٦٧،٦ سم ، وأجمعت المصادر المصرية بعد ذلك على أن الذراع الإصطمبولية ٦٧ سم .

٢٣ ذكر القلقشندي أن خمس أذرع بذراع النجار تعدل ست أذرع هاشمية ، أي أن ذراع النجار = من الذراع الهاشمية = ٦٠ × = ٧٢ سم .

٢٤ كانت الذراع المعمارية تستعمل في الدولة العثمانية لأغراض البناء وقياس الدور والعرصات ، وكنت تعدل ٧٥ سم في بلاد الشام ، و ٧٦،٥ سم في حلب ، و٧٥،٨ سم في الأنضول ، واختلفت في مصر بين ٧٦ و ٧٧ سم ، ثم جعلت ٧٥ سم في قانون الموازين والمكاييل لسنة ١٣٣٢ . وكانت الذراع المعمارية تساوي قدمين معماريتين ، والقدم ١٢ إصبعاً معمارية ، والإصبع ١٢ خطاً ، والخط ١٢ نقطة .

٢٥ ذكر البوزجاني أنه في بلاد فارس وخراسان يستعملون لمسح الأراضي وقسمة المباني والحفائر ذراع المابهرامي ، وهي تعدل ١،٥ ذراع سوداء = ٣٨،٥ ص = ٧٧ سم ، وتقسم هذه الذراع إلى ٦٠ فَلساً ، فالفلس = ١،٢٨ سم .

٢٦ وضع السلطان المغولي المرتد أكبر ذراعاً عرفت بالذراع الأكبرية أو الذراع الإلاهية وكانت تعدل ٤١ إصبعاً أي ٨٢ سم . وقدر السلطان (البريطاني) في الهند هذه الذراع بنحو ٣٣ إنشاً (سنة ١٢٤١) أي نحو ٨٤ سم .

٢٧ والذراع المأمونية = ٥٥ صع = ١١٠ سم وأول من وضعها المأمون ، وهي التي كان يتعامل بها الناس في ذرع السكور وكري الأنهار والحفائر .

٢٨ وهي ذراع أوجدها المأمون العباسي ، وكان يتعامل بها الناس في ذرع المساكن والأنهار والحفائر .

٢٩ A conceptual framework for the study of language standardization، Paul L. Garvin، Int›l. J. Soc. Lang. ١٠١/١٠٠، ١٩٩٣، pp. ٣٧-٥٤.

٣٠ راجع في ذلك مثلاً كتاب The origin of language لمؤلفه Merritt Ruhlen ، John Wiley & Sons، Inc. ، نيويورك ، ١٤١٥ ، ص ١٤٨ .

٣١ Proposal for Correcting، Improving، and Ascertaining the English Tongue، Jonathan Swift، ١١٢٤.

٣٢ No matter how cumbersome or inefficient our language may be، it is reasonable to believe that language will serve that purpose (of communication and transfer of information) better if it remains unchanged، as a common convention accessible to all (Principles of linguistic change).

٣٣ A conceptual framework for the study of language standardization، Paul L. Garvin، Int›l. J. Soc. Lang. ١٠١/١٠٠، ١٩٩٣، pp. ٣٧-٥٤.